(5)

معركة شعراء العصر

obeikandl.com

obeikandl.com

"ولا يعنيك معرفة اسمي فأنا ابن جلا وطلاع الثنايا، فانظر إلى ما قيل، وليس لمن قال، وبعد هذا فإن أعجبتك مقالتي فانشرها، وإلا فاضرب بها عرض الحائط"

الرافعي

مع مطلع القرن العشرين، وبالتحديد في العام 1905م كانت مجلة (الثريا) لصاحبها إدوارد جدي على موعد مع مقال طويل لكاتب مجهول رمزت المجلة إليه بوضع نجمة (*) أمام اسمه، واكتفت في تذييلها للمقال بقولها: "ألقى إلينا مكتب بريد الزيتون يومًا ملفًا ضخمًا واردًا من مصر وداخله كتاب موجز ومعه المقالة المتقدمة للنشر، أما الكتاب فهذه صورته بعد الديباجة: دونك مقالة بكرًا لم يُنسج على منوالها بعد في العربية، حَرِيةٌ بأن تُصدِّر بها مجلتك الغراء، ولا يروعنَّك شدة لهجتها، فكلها حقائق ثابتة، وإن آلمت البعض فإن الحق أكبر من الجميع، وإني لبالمرصاد لكل من ينبري للرد عليها، وأنا كفوءٌ للجميع، وما أخال أحدًا يستطيع أن ينقض حرفًا مما كتبته، وإن ثَّم لزموا الصمت فحسبك من سكوتهم إذ ذاك إقرارًا

بأني أنزلت كل شاعر في المنزلة التي يستحقها، ولا يعنيك معرفة اسمي فأنا ابن جلا وطلاع الثنايا، فانظر إلى ما قيل، وليس لمن قال، وبعد هذا فإن أعجبتك مقالتي فانشرها، وإلا فاضرب بها عرض الحائط. وإني أقترح عليك أن تنشر جميع ما يردك من الردود في المعنى سواء جاهر أصحابها بأسمائهم أو تستروا فإن الموضوع طلي شهي وفي إطلاقك الحرية للكتاب ما ينشط بهم لحرية الجولان في هذا المضمار. (مصر) - (أحد المشتركين).

لقد نفت المجلة نفيًا تامًا معرفتها بصاحب المقال وتبرأت من أية توابع له، وفتحت الباب أمام الكُتَّاب والأدباء للرد على المقال المجهول صاحبه، يقول المحرر: "وقد تصفحنا المقالة فراعنا شدة لهجة الكاتب وبتنا نُقدِّم رِجلًا ونؤخر أخرى في نشرها إلى أن تغلَّب علينا الميل لنشرها، إن لم يكن لشيء فلكثرة ما حوته من رائق الأشعار لتحول الشعراء وهم نخبة شعراء مصر في هذا العصر؛ فأقدمنا على نشرها كما وردتنا بالحرف الواحد غير متحملين تبعتها، وللكتاب الأدباء الحرية في الرد عليها، وأبواب الثريَّا ترحب بكل ما يردُها من هذا القبيل سواء من المشتركين أو غيرهم"

واختتم المحرر كلامه بإيراد البيت الشهير لزهير بن أبي سلمى مستعديًا الشعراء الذين طالهم النقد وأنصارهم على ذلك الكاتب المجهول:

ومَن لم يذُدْ عن حوضهِ بسلاحهِ ... يُهدمْ، ومَن لا يظلم الناسَ يُظلمُ

في البداية أشار الكاتب إلى أن مقالا منشورًا في مجلة الثريا بعنوان (الأدب قديمًا وحديثًا) كان الباعث الأساس على كتابة هذا المقال، ثم ساق الدوافع إلى تجهيل اسمه بقوله: "ثم رأيتُ بعد أن عزم الله لي كتابة هذا المقال أن أتركه بغير توقيع، وإن كنتُ أعلم أن أكثر من يقرأونه كذلك سيخرجون من خاتمته كما لو كانوا أُميين لم يقرأوا فاتحته، فإن الحكمة كلها والمعرفة بجميع طبقاتها أصبحت في أحرف الأسماء، فإن قيل: كتاب لفلان؛ قلنا أين يباع؟! وإن كان من سقط المتاع، على أن اسمي قد لا يكون في غير بطاقتي، وكتبي إلى أصحابي القليلين، وفي سجل بعض الجرائد والمجلات، فليظنني القارئ ما ضرب على رأس الظن"[1]

شعراء العصر في طبقات ثلاث

قسَّم الكاتب شعراء عصره إلى طبقات ثلاث، تنقسم كل طبقة إلى عدة مراتب، جاءت على هذا النحو:

الطبقة الأولى: وتضم أربعة شعراء، جعل في مقدمتها الشاعر العراقي عبدالمحسن الكاظمي، وجاء بعده محمود سامي البارودي، فحافظ إبراهيم، ثم ذيَّل هذه الطبقة بمصطفى صادق الرافعي.

(1) راجع المقال في (مجلة الثريا)، الجزء التاسع، السنة السادسة، يناير 1905م، وقد أهداني صورة ضوئية منه صديقنا حامد المالكي فله خالص الشكر والتقدير.

الطبقة الثانية: وجعل فيها أحد عشر شاعرًا، وصدَّرها بإسماعيل صبري، ثم أحمد شوقي، ثم خليل مطران، فداود عمون، ومحمد توفيق البكري، ونيقولا رزق الله، وأمين الحداد، ومحمود واصف، وشكيب أرسلان، ومحمد هلال إبراهيم، وختمها بحفني ناصف.

الطبقة الثالثة: وفيها ثمانية شعراء على رأسها مصطفى لطفي المنفلوطي، ثم أحمد الكاشف، فأحمد محرم، فمحمد إمام العبد، فالعزبي، فأحمد نسيم، فالسيد أمين الطبطبائي، وجعل في آخرها محمد النجفي.

على أنَّ لنا تساؤلين: هل كان الرافعي ساذجًا لدرجة تجعله مطمئنًا إلى عدم انكشاف أمره ككاتب للمقال؟ وهل كانت المجلة على علم بكاتب المقال؟!

لا أظن أنه كان بهذه السذاجة، فبإمكان أي قارئ واعٍ إدراكُ أن صاحب المصلحة الأول في المقال هو ذلك الشاب الذي حلَّ رابعًا في الطبقة الأولى مجاورًا للكاظمي والبارودي وحافظ رغم أن أحدًا لا يعرفه، إذْ لا يتعدَّى عمره الرابعة والعشرين؛ لكنه أراد أن يضع نفسه في مصافِّ المشاهير فيُسلط الضوء على نفسه ولو بالنقد اللاذع، وهو ما تحقق بالفعل.

أما عن المجلة فلا يمكن أن نُبرئ ساحتها من المؤامرة، فلا أظن أن مجلة تُفسح خمس عشرة صفحة لمقال شخص مُجَهَّل يهاجم فيه صفوة المجتمع الأدبي آنذاك؛ والراجح أنها وجدت الفرصة سانحة لإذكاء معركة يكون لها القدح المُعلَّى فيها. ولأن الشيء بالشيء يُذكر؛ فإن للرافعي

تجربة مشابهة فقد كتب مقالات نقدية في مجلة (العصور) بين عامي 1929 - 1930م بالاتفاق مع صاحبها (إسماعيل مظهر) تحت عنوان (على السفود) واختار لنفسه اسمًا رمزيًا هو (إمام من أئمة الأدب العربي)!

ردود الأدباء: حممٌ وبراكين

لم تكد المجلة تظهر في الأسواق حتى اشتعلت الساحة الأدبية، وامتشق البعض أقلامهم للرد على هذا الكاتب المجهول الذي وضع الأمور في غير نصابها، حسب رأيهم. فمن يجرؤ على تقسيم الشعراء بهذه الجرأة؟! ومن أعطاه هذا الحق المقدس؟! أيرى نفسه ابن سلام الجمحي صاحب الطبقات؟!

يصف الرافعي ما أحدثه المقال في الأوساط الأدبية "وانفجر هذا المقال انفجار البركان، وقام به الشعراء وقعدوا، وكان له في الغارة عليهم كزفيف الجيش وقعقعة السلاح، وتناولته الصحف اليومية، واستمرت رجفته الأدبية نحو الشهر وانتهى إلى الخديو؛ وتكلم عند الأستاذ الإمام في مجلسه، واجتمع له جماعة من كبار أساتذة العصر السوريين، كالعلامة سليمان البستاني، وأديب عصره الشيخ إبراهيم اليازجي، والمؤرخ الكبير جورجي زيدان، إذ كان صاحب المجلة سوريًا، وجعلوا ينفذون إلى صاحب المجلة دسيسًا بعد دسيس ليعلموا من هو كاتب المقال"[1]

(1) وحي القلم 3/ 277، مراجعة وتعليق د. درويش الجويدي، المكتبة العصرية ببيروت، 2002م، ويبدو أن الخديوي قد غضب لإهانة شوقي - ربيب القصر وشاعره - بوضعه في الطبقة الثانية.

وانهالت الردود على المقال، وأفسحت صحف ومجلات - منها (الأهرام) و(الجوائب المصرية) و(المقطم) و(سركيس) و(الظاهر) - مساحات كبيرة لهذه المعركة، فكتب خليل مطران في (الجوائب المصرية) مقالا لَمَزَ فيه الرافعي، مشيرًا من طرف خفي إلى تواضع وظيفته في المحكمة، فكان مما قاله: "وما كان أخلقنا بإغفال تلك المقالة، لولا أننا عجبنا من فرض دعوى هذا المتبجح وأمثاله من الذين لو نقد الشعر نقدًا صحيحًا لما كانوا حُجَّابًا على باب محكمته"؛ كما لمزه أحمد الكاشف هو الآخر بقوله:"فلتهنك رتبة دفعتَ إليها نفسك بمقتضى طبعك لا سمعك" مشيرًا بذلك إلى مرضه بالصمم.

على أن أطرف هذه الردود قاطبة ما كتبه حافظ إبراهيم تحت عنوان (التماس إعادة نظر): "إلى صاحب المقالة المنشورة في إحدى المجلات عن مراتب الشعراء وهو الذي كتبها من نفسه عن نفسه إلى نفسه؛ أرجو محو اسمي من الدرجة الأولى وإثباته بين أصحابي في الدرجة الثانية.. المتواضع لله حافظ إبراهيم - شاعر من الدرجة الثانية"[1]

لم تتوقف المعركة عند هذا الحد، فقد نشرت الثريا عدة مقالات نَحَتْ فيها منحىً جديدًا رمت من ورائه إلى تعرية الرافعي من خلال نقد شعره،

(1) انظر: أنور الجندي، صفحات مجهولة من الأدب العربي المعاصر ص 114 - 115، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى 1979م.

وتصدى لهذه المهمة مصطفى الدرس، وحسن السفطي، وإدوارد مرقص، فتتبعوا شعر الرافعي بغية الكشف عن سوءاته[1]

وعبر يومين متتاليين أفردت صحيفة (الظاهر) صفحاتها لمقالين للمنفلوطي تضمنا نقدًا لاذعًا للمقال، فكان مما قاله: "إن هذا الجهول لما ضاق أمره، وقصرت به خطاه عن مجاراة أدباء العصر؛ حاول أن يضع نفسه في صف الفحول"[2]، ولم يكتف بهذا الأمر؛ لكنه كتب مقالا في مجلة (سركيس) باسم مستعار قال فيه عن الرافعي: "طلب المعنى فأعياه، واستهان باللفظ فانتقم لنفسه منه، وعزَّ عليه السكوت، فما تكاد تراه صامتًا"[3]، ولم يكشف المنفلوطي عن كونه كاتب هذا المقال إلا بعد أربعة أعوام عندما أعاد نشره في الطبعة الأولى من كتابه (النظرات) [4]

(1) راجع ما كتبه الدكتور محمد أبو الأنوار في كتابه (الحوار الأدبي حول الشعر) ص 454 وما بعدها، مكتبة الآداب – مصر، 1428 هـ = 2007م.

(2) صفحات مجهولة، ص 118.

(3) مقال الثريا، مرجع سابق، ص 305 – 320.

(4) انظر ما كتبه حمد بن ناصر الدخيل في كتابه (آراء المنفلوطي في شعراء وكتاب عصره)، النادي الأدبي بجدة، 1425 هـ = 2004م.

obeikandi.com

الرافعي: من الإنكار إلى الإقرار

انتظر الرافعي نحو شهرين يرقب فيهما عن جُنب ما يكتبه الآخرون عن مقاله المثير، ثم انبرى فكتب في (الجوائب) نافيًا فيه صلته بالأمر، وادَّعى "أنه لا يعرف كاتب المقال، وأنه دهش لما ذكره، وقال إن صديقه (حافظ) استغفر الله من الدرجة التي وضع فيها، أما هو -أي الرافعي - فلا يكتفي بالاستغفار والكفارة وما إليهما، وإنما يسأل كاتبها أن يقبل ما أعطى؛ فإن تلك صدقة وليس ممن تجوز عليهم"، كما نشر مقالا ثانيًا في (الثريا) ينتقد فيه من انتقدوا مقاله[1]

وبعد سنوات طوالٍ أقر الرافعي أخيرًا بكتابة هذا المقال في رسالته إلى محمود أبي رية المؤرخة في 9 يناير 1930م حيث قال فيها: "كتبتُ قديمًا مقالة عن الشعراء في مجلة صغيرة اسمها (الثريا)، ولم أذكر اسمي فيها فكان لها دوي هائل واشتغل بها القُطر وجميع الصحف نحو شهر"[2]، كما اعترف بذلك في مقاله (كلمات عن حافظ) [3] الذي كتبه سنة 1935م في الذكرى الثالثة لوفاته.

وهكذا كانت الحياة الفكرية في مطلع القرن الماضي تموج بالمعارك المتباينة التي أثرت الفكر والأدب، وفتحت آفاقًا جديدة وماتعة للمعرفة الإنسانية.

(1) صفحات مجهولة، ص 119 - 120بتصرف.
(2) محمود أبو رية: رسائل الرافعي ص 166، ط الدار العمرية - سوريا.
(3) وحي القلم 3/ 277.